المحور الثاني: الوقائع الاقتصادية في ظل العصور القديمة (النظام البدائي)

تمهيد:

كل نظام اقتصادي ما هو إلا مجموعة العلاقات الاقتصادية والسياسية، القانونية والاجتماعية التي تحكم سير الحياة الاقتصادية في مجتمع ما في زمان بعينه. ويركز النظام الاقتصادي على مجموعة العلاقات والقواعد والأسس التي تحكم التفاعل والتأثير المتبادل بين الحاجات البشرية من جهة والموارد الطبيعية والبشرية والمعرفية والتقنية المتاحة من جهة أخرى.

كان الإنسان منذ القدم ميالا للعيش مع بني جنسه، حيث تكونت آنذاك سلسلة من العلاقات الاجتماعية بين البشر، والتي تجسدت في العمل الجماعي الذي كان يسعى من وراءه لتلبية ضروريات الحياة اليومية، التي تطورت عبر الزمن، إن أول نظام عرفته البشرية هو النظام المشاعي، حيث كان الناس يعيشون على شكل قطيع، ينتشرون في الغابات وعلى ضفاف الأنهار، واعتمد البشر في حياتهم آنذاك على ثمار الأشجار وعلى النباتات، حيث اتسمت تلك الفترة بالوحشية، وقد كان الحجر بمثابة المادة الأساسية التي يعتمد عليها الإنسان في صناعة الأدوات البسيطة التي تساعده في حياته اليومية مثل العصي و القوس والبلطة الحجرية.

امتد النظام المشاعي أو النظام البدائي أو عصر ما قبل التاريخ إلى ما يقارب 19 ألف سنة، ونظرا لتفاعل العديد من العوامل والوقائع الاقتصادية ظهر نظام آخر تميز باستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، عرف بالنظام العبودي نسبة إلى العبيد، أو نظام الرق نسبة إلى الرقيق.

I- النظام البدائي أي ما قبل التاريخ

يعد النظام المشاعي البدائي أول نظام اجتماعي اقتصادي في التاريخ، حيث كان الإنسان آنذاك يستخدم وسائل إنتاج بسيطة كبدائية، كما أن مهارات العمل وخبرة الأفراد وامتلاكهم للمعرفة كان قليلا جدا ، لذلك لم يكن بوسعهم مواجهة الطبيعة وتأمين متطلبات عيشهم إلا بتجميع جهودهم وتضافرها، وكان اعتماد الإنسان على الزارعة عاملا من عوامل تطوير حياته فبدأ يسكن في أكواخ خشبية و طينية بدلا من سكن الكهوف الموحشة، وبدأ في تكوين جماعات من الأقارب كالمقربين و يتعاونون معا ويعيشون متقاربين، ثم تلى تلك المرحلة مرحلة جديدة ظهرت فيها أيضا صور من تقسيم العمل باختصاص جماعات من الأفراد بأوجه نشاط محددة، كقيام بعضهم بمهمة الزارعة وبعضهم بمهمة ري الأراضي، والبعض بمهمة الرعي وهكذا... ، وقد أدى ذلك لظهور المبادلات التجارية بين الجماعات المختلفة

1- مراحل النظام المشاعي:

انقسم هذا النظام إلى ثلاثة مراحل:

1.1- <u>مرحلة الوحشية:</u> تبعا لفنون الإنتاج المستخدمة تنقسم هذه المرحلة إلى ثلاثة أطوار:

- في الطور الأول اعتمد على الجمع والتقاط الثمار والنباتات الطبيعية الغابية أي أنه في ذلك الطور لا فرق بين الإنسان والحيوان الوحشي إلا في التصرفات الإنسانية. أما الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية فكانت العصي والحجارة
- ينما تميز الطور الثاني باحتراف الصيد للسمك وباستخدام النار المتولدة عن الاحتكاك.
- أما الطور الثالث فقد اتسم بالتوسع النسبي في الصيد والرقي في صنع القوس والسهم الصياد وخاصة بعد اكتشاف النار ومعرفة أهميتها.

2. 1-مرحلة البربرية : لقد تطور الفن الإنتاجي في هذه المرحلة نسبيا، حيث لجأ الإنسان لتربية الماشية وزراعة النباتات ثم تطور بعد ذلك لتربية الحيوانات المنزلية وتم استخدام الأجر والحجارة في البناء ، واتسمت نهاية تلك المرحلة باستخدام المحراث والتوسع في الزراعة.

3.1-مرحلة التمهيد الحضاري وتعبر هذه المرحلة هي الحد الفاصل بين النظام البدائي والنظام المدني أي نظام الرق كنظام أولي من النظم المدنية.

2- عناصر النظام البدائي: وتتمثل في النقاط التالية:

2.1-القوى المنتجة: وتشمل:

أ-أدوات الإنتاج: تتمثل أدوات الإنتاج في الحصى والحجارة و تميزت بالبدائية والبساطة وظلت لمدة طويلة حتى سميت تلك الفترة الزمنية " بالعصر الحجري ومع التطور اكتشف الإنسان المعادن واستطاع تشكيلها في صنع الأدوات المعدنية مما انعكست نتيجته في الزراعة وذلك باستخدام المحراث، وبحرث مساحات واسعة توصل الإنسان إلى طريقة ري تلك المساحات.

ب-فنون الإنتاج: كان لتقدم أدوات الإنتاج تأثيره على مبدأ تقسيم العمال حيث كان في بادئ الأمر قائما على أساس الجنس ، الرجل في شؤون الصيد والحرب والمرأة في شؤون البيت والأسرة ، وبظهور مبدا تقسيم العمل ، زادت إنتاجية العمل ثم ظهر التقسيم الاجتماعي الأول للعمل حيث تخصصت بعض القبائل في الزراعة والآخر في تربية الماشية ثم بمرور الزمن وازدهار صناعة المعادن تخصصت بعض القبائل الأخرى في صناعة أدوات الإنتاج كالمحراث وغيرها.

2.2- علاقات الإنتاج:

أ- شكل الإنتاج: لم يكن في مقدور الأفراد مواجهة الطبيعة إلا بتجميع جهودهم وتضافرها، فتجمعوا حينها وشكلوا قبائل وجماعات، وكان اقتصاد القبيلة يدور بصورة مشتركة لتأمين حاجاتهم عن طريق إقامة علاقات إنتاجية قائمة على الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج، فاضطرارهم للتعاون وتوافر أدوات عمل بسيطة متاحة من الطبيعة لم تسمح بتملكها لأشخاص أو مجموعات معينة داخل القبيلة، بل كانت مشاعة ومشتركة بين أفراد القبيلة. أما بالنسبة لتوزيع المنتجات فكان يتم ضمن كميات متساوية وقليلة للحفاظ على البقاء). ولم تكن هناك حاجة لنقود والأسواق للمبادلة، لى أن تم استخدام المقايضة لاحقا.

ب- الملكية: كانت وسائل الإنتاج في النظام المشاعي البدائي ملك للجميع، فأدوات الإنتاج والتي كانت بسيطة وبدائية مثل بعض الأدوات المصنوعة من الحجارة واستعملها الناس في تلك المرحلة لصيد بعض الحيوانات ولجني بعض الثمار وبناء البيوت البسيطة وذلك بهدف البقاء وكان العمل يتطلب تضافر الجميع كقوة واحدة لمواجهة الطبيعة الموحشة في ذلك الزمن. فملكية وسائل الإنتاج كانت ملك للجميع بالرغم من وجود بعض الوسائل التي كانت ملك للأفراد للدفاع عن أنفسهم من الحيوانات.

تعتبر مرحلة التملك الخاص من المراحل الجد متقدمة في نظام المشاعي حيث ونتيجة للوفرة في الأدوات أصبح الإنتاج مرتفع وأصبح لا يوجد داعي للعمل في جماعات والعشائرية وبدأت فكرة امتلاك الأدوات على مستوى الأسرة وحب التملك.

2.3- الإطار التنظيمي (العلاقات الاجتماعية والقانونية والسياسية

أ- التنظيم الاجتماعي: كان النظام الاجتماعي مبني على تجمعات تسمى العشيرة وكانت العشيرة أموية ثم ومع تطور أدوات الإنتاج أصبحت أبوية، وكان العرف هو أساس الهيبة فلم تكن لديهم دولة ذات قوانين مكتوبة كما لم تكن هنالك طبقية وفروق: الأغنياء والفقراء، وبين السادة والعمال، ثم بتطور الزمن حلت الأسرة محل نظام العشائر وخاصة بعد معرفة الانتماء الأبوي، وفي أواخر النظام بدأت الملكية الخاصة في الظهور تدريجيا وذلك بحلول الزواج الفردي محل زواج الجماعة مع الإيثار وباعتبار الأسرة الزوجية هي الوحدة الإنتاجية (الاقتصادية)

ب- العمل: مع قسوة الطبيعة وبساطة أدوات الإنتاج اضطر الإنسان إلى العمل الجماعي والجهد المشترك وذلك للتغلب على مصاعب الحياة،وقد برز لأول مرة مفهوم تقسيم العمل مع ظهور الزراعة والرعي وزيادة الانتاج. ومن بين أهم نتائج هذا التقسيم للعمل: قيام وتطور التبادل وظهور مهنة صنع الأواني مع التمهيد لتقسيم أوسع للعمل.**3**

3- هدف النظام البدائي:

يتمثل الهدف الأساسي للنظام البدائي في الإشباع المباشر للحاجيات فلم تكن المبادلة ونظام الأسواق أهدافا لهذا النظام، حيث أن نظام السوق ظل تقريبا مجهولا في هذه الفترة، أما نظام المبادلة فقد ظهر بعد مبدأ تقسيم العمل إلا أنه كان مبادلة جماعية تتم بين القبائل ويتطور نظام المبادلة ظهر نظام النقود السلعية كعامل ثاني في المبادلة.

4- عوامل اضمحلال النظام البدائي:

هناك عدة عوامل أدت إلى نهاية النظام البدائي وظهور نظام اجتماعي اقتصادي جديد:

أ- تقدم الفن الإنتاجي وخاصة بعد اكتشاف المعادن وتطور أدوات الإنتاج.

ب- اتساع نطاق المبادلة، مما خلق فرص عمل جديدة وأدى ارتفاع قيمة العمل البشري وضرورة الحاجة إلى قوة عمل جديدة.

ج- ظهور فئة جديدة لا تمارس الأعمال المتعارف عليها كالزراعة وتربية الماشية والحرف، هذه الحرفة تخصصت في المبادلات وهي فئة التجار مما جعل بوادر ظهور نظام جديد.

د- الحروب بين العشائر أو القبائل، حيث تواجدت أسرى الحرب الذين كانوا يكلفون بالعمل الإنتاجي وخاصة أن قيمة العمل البشري كانت في حاجة ضرورية لزيادة الإنتاج. كل تلك العوامل أدت إلى تدهور النظام البدائي وظهور نظام الرق.